بدأت بأسئلة صعبة وختمت بأسئلة أصعب

"ذاكرة الغد": مَنِ الضحايا ومَن المرتكبون؟ هل تجاوزنا المحاكمة لنصل إلى النسيان؟

كتبت بارعة سريح:

لم يكن مطلوبا من ندوة "ذاكرة للغد" التي عقدت في مبنى الاسكوا، الاجابة عن الاسئلة. الا انها كما افتتحت الجمعة الفائت بأسئلة صعبة اختتمت السبت بأسئلة اصعب. والمهم انها فتحت النقاش حول امر لا يريد احد التحدث عنه: ذاكرة الحرب الجماعية لدى اللبنانيين. من الضحايا ومن المرتكبون؟ هل كان اللبنانيون جميعا ضحايا، ومرتكبون في آن واحد؟

هل نحاكم شعبا برمته؟ المرأة التي كانت تحمل الطعام الى المقاتلين وراء المتاريس، الصحافي الذي برر معركة ما او تعاطف مع مجموعة مقاتلة؟ واذا كان المجتمع قد تجاوز مرحلة المحاكمة التي تأخرت، فهل يمكنه الوصول الى التسامح والنسيان، من دون المرور بمرحلة الاعتراف بالجرائم؟ كل ما قيل في هذا المجال، خلال المحاضرات والمناقشات يصلح مادة للبحث ويفترض استكماله، وخصوصا انه لم يتم الخروج بإجابات، وتحديدا عن السؤال الاساسي: هل المسألة تقتصر على ذاكرة الضحايا، ويبقى المرتكب خارج دائرة التذكر؟

ربما تكون العبرة في تجربة جنوب افريقيا التي عرضها بول هوبت في اليوم الاول من الندوة، وتكمن اهميتها في عدم استثناء المرتكب ودفعه الى الاعتراف بجرمه، جاعلة بذلك الضحية والمرتكب في المعادلة وصولا الى التعامل مع الحقيقة.

ولعل التعبير الابلغ في هذا المجال اتى من شهادة امرأة ورد ذكرها في سياق الندوات. امرأة قتل زوجها وابنها في الحرب وتلتقي قتلتهم كل يوم، وتقول: "لا اريد الانتقام، كل ما اريده هو ان يعترفوا بجريمتهم، والا اوصي لأولادي، واحفادي بالثأر".

وجاءت ملاحظة الامين العام لمعهد دراسات القضاء العليا في فرنسا ورئيس لجنة كوسوفو انطوان غارابون، لتضع الاصبع على الجرح حين قال: "استمعت للمداخلات عن الحال اللبنانية خلال يومين وسمعت كل شيء باستثناء كلمة "غفران"، لم اسمعها من احد. فكيف يمكن الغفران والتسامح ان يسبقا الاعتراف بالذنب؟".

النقاش حول جرائم الحرب كان اقفل قبل عشرة اعوام عبر قانون العفو الذي حاول ان يمحو العدل لا ان يقيمه وبدل ان يكون هو الحل صار المشكلة.

هذا النقاش الذي اقفل في شكل مصطنع فتح بالأمس من جوانبه كافة: النفسية والعمرانية والقضائية والسياسية.

المهندس المعماري جاد تابت تحدث عما سماه: "ذاكرة الحجارة" معيدا الحضور الى عام ١٩٩٢، "ايام دمرت ذاكرة مدينة بيروت" معتبرا ان "تدمير المدينة القديمة تم بهدف محو آثار الحرب وتأسيس مدينة جديدة على اسس كاملة. فمشروع اعادة البناء هدف الى اداء دور علاجي في تأسيس المدينة بالاستناد الى نوع من النسيان الخلاصي الذي سيحميها من الشياطين القديمة التي ادت الى دمارها".

الا انه لاحظ ان "تشريح بيروت مع علماء الاثار اظهر انه في كل مرة دمرت هذه المدينة، كانت تعيد بناء نفسها في شكل متشابه ويستعمل قسم كبير من حجارتها القديمة. وكأنه في كل مرة، كانت هذه المدينة تحتاج الى تذكر كيف كانت من قبل، كي تتمكن من تخيل مستقبلها". والكاتبة رفيف رضا صيداوي عرضت لتجليات الحرب في روايات ما بعد الحرب، ولاحظت "تكاثر النصوص الروائية التي تناولت الحرب خلال اعوام القتال التي بلغت ١٥ عاما (اي من عام ١٩٧٥ حتى عام ١٩٩٠) ثم تركزها في الاعوام الخمسة التي تلت توقف القتال، فانحسارها التدريجي بعد ذلك، وربما قادتنا مثل هذه الملاحظة الى الظن، وبصورة آلية، ان نزعة تغييب الحرب تتنامى في نصوص ما بعد الحرب".

واعتبرت ان "حربا كهذه لا يمكن ان تُمحى من التاريخ ولا من الذاكرة الفردية اوالجماعية، ومن جهتها تنحفر الرواية في التاريخ الادبي وينحفر التاريخ فيها. ومثلما ينتفي التاريخ بدون ذاكرة تحفظه، تنتفي الرواية بدون ذاكرة ادبية تحفظ تجلياتها في محطات زمنية تدلل على كيفية تحققها في المجال التاريخي الثقافي الذي انتجها ضمن سيرورة زمنية متوثبة الى الامام".

الدكتورة في علم النفس ومديرة مركز "صدمات الحرب لدى الطفل" ميرنا غناجيه شرحت المعاناة الناتجة من مقاومة التذكر والاثار النفسية التي تنتج من رفض الذاكرة. وعرضت حالات بعض الاطفال الناجين من مجزرة قانا وكوابيس هؤلاء خلال نومهم ويقظتهم، وخصوصا عدم قدرتهم على الحديث عن الرعب الذي تعرضوا له، معتبرة ان الامر ينطبق على الكبار ايضا. ورأت انه "كلما اعترف المجتمع بضرورة واجب التذكر، كان الامر اسهل للأفراد وجنبهم ذلك الرعب الذي يجتاحهم".

المحلل النفسي فرانسوا فيلا فاجأ الحضور بنص مركز وعنيف اعتبر فيه ان "نظرة سريعة لتاريخ البشرية تجبرنا على الاعتراف بأننا نحمل ارث اجيال طويلة من القتلة. ولا تتعارض تجربة التحليل النفسي مع هذا الواقع التاريخي وتدفعنا الى الاعتراف بوجود هذا الارث. وكل الجهد الذي نبذله لمقاومة هذه الرغبة او تجاهلها لا يؤدي الا الى تقويتها.

لذا اقول ان الذاكرة ليست غاية بل طريقا. اي ان طريق التذكر هو طريق عدم التحول قاتلا. هو طريق العمل الذي يساعد الانسان على عدم الفعل ويكسبه القدرة على التمييز".

وعن النسيان قال: "ما نطرده من الوعي يبقى موجودا". والنسيان طريقة وجود خطيرة في تأثيراتها. فنحن نحاول ان نمحو عبر الماء انفسنا بأشياء اخرى لكننا لا نمحو ابدا".

فرنجيه

سمير فرنجية قدم مقاربة للحرب في اطار النظام اللبناني ورأى ان "اللبنانيين اختاروا طي الصفحة عام ١٩٩١ عبر اصدار قانون للعفو ودمج الميليشيات في القوى النظامية وتوحيد العاصمة وانشاء وزارة للمهجرين. وكان من الضروري وقف دورة العنف بأي ثمن وقد تم اعطاء الاولوية لمصلحة المجموعة واستمرارها على حساب عدالة الافراد. الا ان وضع خط بيننا وبين الماضي لم ينجح لاسباب عدة، اولها اتفاق الطائف عام ١٩٨٩ الذي اوقف الحرب ولم يحلّ السلام، بل استعملته سوريا لتهيمن على لبنان. ولكي تنجح في هذه الهيمنة قطعت الطرق امام اي امكان مصالحة بين اللبنانيين وفرضت قراءتها الخاصة بالحرب". اضاف ان "عدم تطبيق اتفاق الطائف لا يفسر وحده عدم تمكن اللبنانيين من طي الصفحة والنظر الى مستقبلهم في شكل اكثر وضوحا، والمشكلة التي تواجههم لا تأتي من الناحية السياسية فحسب. فماضي هذه الحرب، التي يستنكرها الجميع اليوم، لا يزال يطاردهم ولا يزالوا غير قادرين على فهم حقيقة ما حصل لهم. والدليل على ذلك انهم غير قادرين على الاجابة عن سؤال، من كان مسؤولا عن هذه الحرب؟ أهي اسرائيل ام سوريا ام الفلسطينيون ام الميليشيات؟".

وتابع: "الذين اقتنعوا بأسباب الحرب الحقيقية وهم كثر، شعروا بأنهم اما استُعملوا واما تعرضوا للخيانة. اصيبوا بخيبة ومرارة وما عادوا يريدون ان يسمعوا شيئا، واختاروا طريق المنفى في الخارج او الداخل. وما سمي احباطا بدأ عند المسيحيين وامتد تدريجا الى جميع اللبنانيين، وهو تعبير سياسي: المسيحيون يتحدثون عن التهميش والقمع والمسلمون يعزونه الى الازمة الاقتصادية الاجتماعية، في حين يتفق الجميع على ان المستقبل لم يعد يحمل الكثير من الآمال".

غارابون الذي تحدث عن "عمل الذاكرة، وعمل العدالة" رأى ان "العدالة لا تختصر في لحظة ولا يمكن حصر الذاكرة في حال واحدة، اي التذكر. وتُكتسب الذاكرة الجماعية، خصوصا في ما يتعلق بالجرائم الجماعية، في لحظات مثل جلسات لجنة الحقيقة والمصالحة التي شكلت في جنوب افريقيا، او في نشر شهادة في الصحافة او في مبادرة معبرة كفعل التوبة الذي اعلنته الكنيسة الفرنسية في ما يتعلق بموقفها في ظل نظام فيشي. وفي المقابل يجب ان يكون صوت العدالة مسموعا". واستشهد بقضية ديكتاتور تشيلي المتقاعد اوغوستينو بينوشيه: "خروج بينوشيه من بريطانيا شكل للبعض فشلا لأن افق استكمال الدعوى بدا بعيدا مع عودته الى تشيلي. الا ان التشاؤم تلاشى بسرعة مع اطلاق الدعوى ضمن المؤسسات داخل تشيلي. عمل العدالة بدأ في شكل اقل استعراضا انما اكثر عمقا رغم ان الحكم في حقه لم يصدر بعد. ومن هنا يمكننا الحديث عن العمل الحقيقي للعدالة الذي كان ممكنا بفضل تصميم مناضلين وجرأة القضاة البريطانيين". وقال ان عمل العدالة وعمل الذاكرة "مرتبطان في شكل حميم".

ولاحظ ان "الذاكرة تبحث دائما عن عدالة وخصوصا للموتى الذين لم نبكهم ولا نود اقتلاعهم من النسيان"، لافتا ان الذاكرة قد قد تكون احيانا خطيرة، متوقفا عند تبرير ميلوسوفيتش التطهير العرقي، بتذكر العنف ضد الصرب.